

رأيي في تحديد عصر الراغب الأصفهاني

للككتور عمر عبد الرحمن السائني

تقديم

رَجَّحت ، في العدد المزدوج ٣ ، ٤ من مجلة المجمع المؤتمر ، نسبة كتاب « درة التنزيل و غرة التأويل » للراغب الأصفهاني ، وقد عزاه بعض قدامى الباحثين والمعاصرين لغيره . واليوم أحاول ، بحول الله ، أن أقدم رأياً في خطأ اكبر ، قام في أذهان كثير من الباحثين ، حول تحديد وفاة الراغب الأصفهاني نفسه ، فأزعم أن وفاته قد كانت ، على الأرجح ، قبل عام ٥٠٢ هـ ، الذي حدَّده لها هؤلاء الباحثون ، بقرن كامل من الزمان ! وليس هذا الفرق في تحديد عصر أحد رجال التراث ببسر ، بل إنه يزداد أهمية إذا أدركنا أنَّ أغلب كُتَّاب الطبقات والتراجم قد أداروا ظهورهم لهذا الكاتب فلا يكون يتعرضون له ، ومن لم يتجاهله من الباحثين المحدثين ، وهم قلة ، فقد عدَّه من أهل القرن الخامس الهجري . وكلما مضى الباحث في القراءة في « محاضرات الأدباء » أو في « معجم مفردات القرآن » أو في « الذريعة الى مكارم الشريعة » أو في غيرها من آثاره المطبوعة والمخطوطة ؛ شعر بظلم جائر وحيف يتعرض لهما هذا الكاتب ، فأغراه البون الشاسع ما بين الكائن والذي ينبغي أن يكون بالزائد من الكشف والبحث في سبيل الوصول الى الحقيقة أو ما يشبه الحقيقة مما يرضي الضمير ويوفى مطالب البحث العلمي الوثيق .

الإشكال الأول - تاريخ الوفاة :

حينما وافق مجلس كلية الآداب ، بجامعة عين شمس ، على أن يدور بحثي (١) حول حياة أبي القاسم ، الحسين بن مفضل بن محمد ، المعروف بالراغب الأصفهاني وأثره في اللغة والأدب مع تحقيق إحدى مخطوطاته ، مَضَيْتُ استسقط أخباره ، فذهبتُ إلى صاحب « كشف الظنون » (٢) استهديه في التعرف إلى مصنفاته بصيصاً من نور ، قد تسعف في الوصول إليه كتب الاعلام والمؤلفين والمطبوعات (٣) ، فمَدَّد من مصنفات الراغب ما لا يزيد على أصابع اليد الواحدة ، وسكَّت عن الإشارة لعصر المصنف في بعضها ، بينما ذكر ، في بعض ، أنه قد توفي في راس المائة الخامسة . أما ما تذكره أكثر كتب المحدثين عن وفاة هذا الرجل فهو عام ٥٠٢ هـ (٤) ، وبينهما فارق زمني لا يستهان به ، أنه قد يكون قرناً برأسه . وهذا هو الإشكال الأول الذي يلتقيه الباحث في هذا البحث .

(١) لنيل درجة الدكتوراة في الاداب من قسم اللغة العربية ، وقد نوقش البحث

بتاريخ ١٩٧٧/١١/١٧ .

(٢) حاجي خليفة ، استنبول ١٩٤١ .

(٣) مثل الاعلام للزركلي ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ومعجم سركيس .

(٤) راجع الاعلام ٢ / ٢٧٩ ط ٢ ومعجم المؤلفين ٤ / ٥٩ ومعجم المطبوعات

العربية ليوسف سركيس ٩٢٢ وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ١ / ٢٦٩

(النسخة الألمانية) ودائرة المعارف الاسلامية ١ / ٤٠٧ ، ٤٧٣ .

الإشكال الآخر - ندرة الترجمة :

استطلعتُ ياقوت في « معجم الأدباء » (٥) فلم أظفر منه بترجمة للراغب ، وبحثتُ في « طبقات الأدباء » (٦) فلم أعر على شيء مما أريد ، وكذلك كانت « طبقات الشافعية » (٧) . قلبتُ صفحات « تاريخ بغداد » (٨) فبدا وكان صاحبنا لم يزرها ولم يعرفها ، ثم نظرتُ في « الوفيات » (٩) وفي تمامتها (١٠) فأعيايتي النظر ، وفتشتُ في « يتيمة الدهر » (١١) مسرعاً ، وفيما أتمها من « دمية قصر » (١٢) و « وشاحها » (١٣) وما تلاها من « خريدة قصر » (١٤) فلم أجد عنه منها جميعاً بكلمة واحدة ! وثقتُ في « سير اعلام النبلاء » (١٥) فلم يتح

(٥) مطبعة دار المأمون باشراف احمد فريد رفاعي ، ولا أدري كيف يذكر الخوانساري (في روضات الجنات ٣ / ١٩٧) أن صاحب معجم الادباء قد ذكر الراغب .

(٦) نزهة الالباء في طبقات الادباء ، ابو البركات الاتباري (٥٧٧) تحقيق د. ابراهيم السامرائي ١٩٥٩ .

(٧) للامام السبكي ٧٧١ هـ .

(٨) للخطيب البغدادي ٤٦٣ مكتبة الخانجي والمكتبة العربية ببغداد ١٩٣١ م .

(٩) وفيات الاعيان - ابن خلكان ٦٨١ هـ .

(١٠) الوافي بالوفيات ، صلاح الدين الصفدي ٧٦٤ ، فوات الوفيات ، ابن شاكر الكتيبي ٧٦٤ وعقود الجمان على وفيات الاعيان وهو مخطوط رأيتُه في مكتبة الفانح بجامع السليمانية باستانبول رقم ٤٢٤ صنعة محمد بن عبد الله المراكشي .

(١١) أبو منصور الثعالبي ٤٢٩ هـ وهو سبب التفتيش السريع .

(١٢) الباخرزلي ٤٦٧ هـ .

(١٣) علي بن يزيد البيهقي ٥٦٥ هـ .

(١٤) العماد الكاتب الاصبهاني ٥٩٧ هـ .

(١٥) شمس الدين بن عثمان الذهبي ٧٤٨ هـ .

لصاحبنا أن يكون واحداً منهم ، وسألت عن آدابه في « شذرات الذهب » (١٦) فوجدت أن صاحبها لم يعدّه منها .

إشارتان ونُقُول :

ولكن مصنفين فاضلين قد خالفا من قبلهما وعرضا له عرضاً وجيزاً ، وكان لعرضهما ، على وجازته ، قيمة كبيرة لمن تلاهما من كتاب التراجم العامة والخاصة .

أما أولهما فهو ظهير الدين البيهقي الذي عاش في القرن السادس (٤٩٩ — ٥٦٥) وترجم « لحكام الاسلام » (١٧) وجعل أبا القاسم الراغب واحداً منهم .

ولا يقلل من قيمته ، في تقدمه ، عدم تعرضه لتاريخ الوفاء ، كما لا يقلل منها أن أحداً ، بعده ، لم ينقل عنها ، في حدود علمنا ، فربما كان ذلك السبب ، كما يذكر بعض الباحثين ، هو الموقف الذي كانت تتفقه العامة والخاصة في بعض مراحل التاريخ الاسلامي من رجال الحكمة والفلسفة (١٨) .

وأما الآخر فهو جلال الدين السيوطي (٩١١) (١٩) الذي نقل عنه المصنفون من ذوي الحرص والتثبت مثل حاجي خليفة في كشف الظنون . وعن هذا نقل سائر المصنفين ونقل أصحاب التاريخ الخاص

(١٦) ابن العماد الحنبلي ١٠٨٩ هـ .

(١٧) تاريخ حكماء الاسلام ، تحقيق ونشر الاستاذ محمد كرد علي ، دمشق ١٩٤٦ ، ص ١١٢ .

(١٨) الشيخ الاستاذ مصطفى عبد الرازق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ٨٦ .

(١٩) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، مكتبة الخانجي ، ط ١ ، ٢٩٦ .

واعني بهم مؤرخي الشيعة من أمثال محمد باقر الخوانساري (٢٠) ومحسن الأمين العاملي (٢١) وعباس القمي (٢٢) وآغا بزرك الطهراني (٢٣) .

وكانت نقول هؤلاء عن صاحب كشف الظنون ذات قيمة في دراسة الراغب تعلو على ما اخذوه من المراجع التي ذكروها ممن سبقهم في التأريخ لطبقات الشيعة (٢٤) . وقد حاولت ان اطلع على هذه الطبقات فلم استطع .

وكان اثر السيوطي في ابراز فضل الراغب ، فوق ذلك ، فيما نقله عن بدر الدين الزركشي (٢٥) من حديث فخر الدين الرازي عن الراغب وأنه من أئمة السنة « وقرنه بالغزالي » . وقد اطرى الزركشي نفسه ، ايضا ، أحد مصنفات الراغب (٢٦) ، كما اطره السيوطي في بعض مصنفاته (٢٧) .

(٢٠) روضات الجنات في احوال العلماء والسادات ، طبع وتحقيق ايران ١٩٧ / ٢ .

(٢١) اعيان الشيعة ، مطبعة الانتان ١٩٤٨ .

(٢٢) سفينة البحار ومدينة الحكم والاثار ١٣٥٩ ، والكنى والالقب ، مطبعة الزمان ، صيدا ، ١٣٥٨ هـ .

(٢٣) الذريعة الى تصانيف الشيعة ، النجف الاشرف ، ٢٠ / ١٢٨ ، ١٠ / ٢٨ ، ٤ / ٢٥١ ، ٨ / ٩٥ .

(٢٤) مثل كتاب اخبار البشر ، ورياض العلماء وحياض الفضلاء للميرزا عبد الله ، واسرار الامامة للشيخ حسن بن علي الطبرسي ، ذكرها صاحب روضات الجنات وصاحب اعيان الشيعة غير انني لم استطع الاطلاع عليها في مكبات بغداد (أثناء زيارتي لها في ١١/٦/١٩٧٥ ، وهي غير متوفرة في دار الكتب المصرية) .

(٢٥) البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، مكتبة الحلبي ، ١ / ٢٩١ .

(٢٦) المرجع السابق حيث ذكر كتاب الراغب « الذريعة الى مكارم الشريعة » .

(٢٧) الانتان في علوم القرآن ١ / ٧٢ حيث عدّ الراغب من المفسرين غير المحدثين وأشار اليه في عدة مواضع .

وقد كانت اشارات هؤلاء جميعا الى الراغب شديدة الشح في الاخبار عن الأحوال الشخصية له من ولادة ونشأة وروابط اجتماعية وثقافية وعملية ، فاقترنت على الإيماء الى موقع مذهبه بين السنة والاعتزال والتشيع (٢٨) وعلى مبلغ اخذه من العلوم العقلية او النقلية (٢٩) ، او على مدى قرنه بالفزالي (٣٠) او اعجاب ابي حامد الفزالي ببعض كتبه (٣١) . أما وفاته فقد اضطريت فيهما اقوالهم اضطرابا شديدا .

حتى اذا ما وصلنا الى العصر الحديث راينا انَّ نُقُولَ المحدثين عن السابقين لا تتمدى هذه الحدود ، وهو امر مألوف ، وقد قيل « وكيف اعتدال الفرع والأشئ مائل » . ولا يفرّ من هذه الحقيقة تعدّد الناقلين ، فقد ترجم للراغب ترجمة سريعة كل من بروكلمان (٣٢) والموسوعة العربية الموسعة (٣٣) ومعجم المطبوعات العربية (٣٤) والقاموس الاسلامي (٣٥) وجورجي زيدان (٣٦) وفهرس المكتبة الخديوية التيمورية (٣٧) . أما دائرة المعارف الاسلامية (٣٨) فقد نقلت عن بروكلمان نقلاً مباشراً .

(٢٨) السيوطي ، بغية الوعاة ، ٣٩٦ ، والخوانساري ، روضات الجنات ٢ / ١٩٧ .

(٢٩) البيهقي ، تاريخ حكماء الاسلام ١١٢ .

(٣٠) السيوطي ، بغية الوعاة ، ٣٩٦ .

(٣١) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ١ / ٥٣٠ .

(٣٢) المجلد الثالث المبسط ، ص ٥٠٥ ، النسخة الالمانية .

(٣٣) دار التلم ومؤسسة فرانكلين ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٨٥٤ .

(٣٤) يوسف سركيس ، مطبعة سركيس بصر ١٩٢٨ ، ص ٩٢١ .

(٣٥) أحمد عطية الله ، مكتبة النهضة العربية ١٩٦٦ ، ٢ / ٤٧٢ .

(٣٦) تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الهلال ٣ / ٤٤ .

(٣٧) ٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢٥٤ / ٤ .

(٣٨) المجلد التاسع ١ / ٤٠٧ ، ٤٧٣ .

ولم يكن حظ الراغب في كل هذه المراجع أكثر من سطور ، لم
تزد عنها ، إلا في فهرس المستشرق الألماني بروكلمان .

على أن باحثاً فذاً قد هدته بصيرته الى ادراك فضل الراغب
والتنبيه عليه لأول مرة في العصر الحديث ، وهو الاستاذ محمد كرد علي
مؤسس المجمع العلمي العربي بدمشق وأحد امراء البيان في الأدب
العربي الحديث ، فقد أفرد له مقالة ضافية في مجلة مجمع دمشق (٢٩) نشرها
فيما بعد في كتابه « كنوز الأجداد » (٤٠) ، ونشرها في أحد اعداد مجلة
المقتبس (٤١) التي يشرف على تحريرها . ولا يقلل من فضله هذا أنه
حقق كتاب « حكماء الاسلام » للبيهقي الذي ذكرنا أنه أول من أطرى
الراغب من الأقدمين ، فقد حققت مصنفات السيوطي والزرکشي ولم
يزد محققوها عن الهوامش المختصرة .

أما مقالة الكاتب الشاعر محمد عبد الغني حسن حول كتساب
« محاضرات الأدباء » المعروف للراغب فلم تعد أن تكون تلبية لنداء
استاذة كرد علي في الشام . وقد حاول ، في هذه المقالة (٤٢) ، أن يتحدث
عن هذا الكتاب ثم عقد مقارنة بينه وبين كتاب المستطرف للأبشيهي .
أما ما عدا ذلك فلا أعرف أن أحدا قد تعرض لصاحب المحاضرات بأكثر
من إشارة متعجلة (٤٣) ، في حدود ما نعلم .

(٣٩) العدد ٢٢ ، شباط فبراير ١٩٤٧ .

(٤٠) مطبعة الترقى ، دمشق ، ١٩٥٠ ، ص ٢٦٩ .

(٤١) ٢ / ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٤٢) في كتابه دراسات في الادب والتاريخ .

(٤٣) مثل إشارة الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه تمهيد لدراسة الفلسفة الإسلامية ،

ص ٨٦ .

وأشارة الدكتور عمر فروخ في كتابه « تاريخ الادب العربي » دار العلم للملايين ،

البحث :

لم يكن يد ، اذن ، من البحث عن اخبار الرجل عن نفسه ، بعد ان لم تسعف احاديث الآخرين عنه . فلعلنا نقع منه على ما يدل على احواله الخاصة ، من موطن ومنشأ ومعاش وثقف ، ولعلنا نظفر منه على ما ينبىء بالعصر والمعاصرة .

لهذا فقد صح العزم على السفر ، ثانية (٤٤) ، الى استانبول ، للتحقيق في المخطوطات هناك ، عن اخباره فيما خلف من رسائل ومصنفات . وقد تمت الزيارة في النصف الثاني من شهر حزيران عام ١٩٧٥م ، فكان اطلاع على ما نسب اليه من مخطوطات في المكتبة السليمانية كبرى مكتبات استانبول وفي غيرها كمكتبة كوبريللي ومكتبة احمد الثالث (طوب قبوسراي) ومكتبة راغب باشا ومكتبة بايزيد .

الم يتحدث عن نفسه ؟

وكان هذا السؤال الذي يرد اولا في خاطر .

انه لم يتحدث بضمير المتكلم الا في مواطن قليلة الى حد ملموس ، فلننظر فيها وفيما وراءها :

بيروت ١٩٧٢ (٣ / ٢١٤) .

واشارة الدكتور وديعة طه نجم في كتابها « الجاحظ والحاضرة العباسية » ، بغداد ١٩٦٥ ، ص ٤٢ .

واشارة الشيخ محمد حسين آل كاشفي الفطاء في كتابه « اصل الشيعة واصولها » وحينما اورد الدكتور زكي مبارك نصا من « محاضرات الادباء » للراغب ، في كتابه « النشر الفني في القرن الرابع الهجري » لم يقل لنا شيئا محددا عن عصر الراغب .

(٤٤) فقد كانت الزيارة الاولى لاستانبول بتاريخ ١٩٧٤/٩/٢٦ للحصول على النسخة الاخرى من مخطوطة « مجمع البلاغة » للراغب ، والتي عني الباحث بتحقيقها وتقديمها مع هذا البحث لنيل درجة الدكتوراة .

في مخطوطة « مجمع البلاغة » نقرأ النصوص التالية :

« ورأيت من الأدباء من يحمل ذلك على الإباحة (في شرح قولهم :
إذا لم تستح فاصنع ما شئت) » « (٤٥) » .

« وأنشدت بعض الناس ... فقال لي ... » (٤٦) .

« وللأدباء أشعار كثيرة في الهر اخترت صدرا منها في عيون
الأشعار » « (٤٧) » .

وفي تفسيره المخطوط « (٤٨) » يقول « وقد رأينا كتباً كثيرة صنفت
في الطعن على الإسلام قد نقلت وتدوولت » .

وفي كتاب « الذريعة الى مكارم الشريعة » يقول : « وكثير في
زماننا من تحلى بعلم الكلام وترشح فيه للجدال والخصام » « (٤٩) » .

هذا مبلغ ما يسمح به في حديثه عن نفسه : رأيت وأنشدت
واخترت ورأينا وزماننا ، وكل هذه العبارات لا تنبئ عن شيء خاص
في تكوين صورة له ، في اية مرحلة من مراحل عمره ، ولا يخرج عن
هذا الشح في الحديث عن النفس ما يقوله في العبارة الأخيرة عن علم
الكلام وما يستتبعه من جدال وخصام .

ثم نبحث عن صدى من مثل هذه اللمحات العزيزة عن بعض
ملامح نفسه وأخلاقه فلا نجد الا القليل النادر ايضاً .

(٤٥) مخطوطة مجمع البلاغة ، ورقة ١٠٨ .

(٤٦) المصدر السابق ، ورقة ١٧١ .

(٤٧) المصدر السابق .

(٤٨) مخطوط رقم ١٧١ ، مكتبة اياصوفيا بالسليمانية في استانبول .

(٤٩) مجمع البلاغة الورقة ١٢٧ .

من ذلك نص في « مجمع البلاغة » (٥٠) : قال :

وانشدت بعض الناس ، وقد لامني لمنعي اياه شيئاً سألنيه
الأمُ واعطي والبخيل مجاور له مثل مآلي لا يُلام ولا يُعطي
فقال : نعم تلام ثم تلام ، وانشد :

فما كل بمعذور يبخل ولا كل على بخل يلام
لعل هذا الموقف الذي اجابه به من كنى عنه « ببعض الناس »
يوحي أنَّ الراغب كان ذا سمعة طيبة وشهرة واسعة لا تسمح له ان
يتهم بالبخل كأي فرد آخر غير مشهور من الناس .

وقد نلمح اثر هذه السمعة الاجتماعية والمنزلة العلمية المتميزة في
تقديمه لبعض مصنفاته :

« سألت ايها الاخ الفاضل . . . ان اعمل رسالة ابيّن فيها انواع
الاعتقادات التي يحكم بها على الانسان بالايمان والكفر . . . وقد
استخرت الله تعالى في ذلك وعملت ما اقترحتة » (٥١) .

وفي آخر « كنا تذاكرنا ، اطال الله بقاء الشيخ الفاضل وادام
تأييده ، في لفظ الواحد والأحد وتحقيتهما ، فسأل ان اثبت ذلك كتابة
ففعلت ايجاباً له » (٥٢) .

(٥٠) الورقة ١٧١ .

(٥١) مقدمة رسالة في الاعتقاد - مخطوط رقم ٢٨٢ ، مكتبة سميد علي باشا
بالسليمانية باستانبول .

(٥٢) مقدمة رسالة في ذكر الواحد والاحد - مخطوط رقم ٣٦٥٤ / ٢ ، مكتبة اسعد
افندي ، بالسليمانية باستانبول .

مشاركة في الندوات والمجالس العلمية :

فمن هذين النصين يتبين أنّ الراغب كان يشارك الآخرين في مجالس العلم والادب ، «وهي ما قلنا أنها بمعنى محاضرات الإدياء ومجالسهم ، بل انه قد كان يسأل ليقدم رأيه في أمور دقيقة في العقائد كالإيمان والكفر وعناصر الإيمان وتحقيق لفظتي الواحد والاحد ، ولا يسأل عنها الا الراسخون في العلم . بل إنّ الراغب يورد لنا نصاً ثالثاً ، في هذا الصدد ، نلمح منه انه كان من الذين يقولون بالرأي الفصل اذا ما اختلفت الآراء واختلفت ، يقول « بلغني ما جرى بحضرة الشيخ ، اطل الله بقاءه ، من ذكر مخالطة الناس ومجانبتهم أن الحاضرين عنده اختلفوا : بعض يمدح المجانبية وبعض يمدح المخالطة ، ثم اختلفوا في الصداقة ، فأحببت أن أجعل ذلك كتاباً اذكر فيه نكت ما قاله العلماء والحكماء واجعله هدية اليه » (٥٣) .

وهذا دليل على تفاعل الراغب مع المجتمع وقضاياه والانصات لما يدور في مجالس كبراء المناصب السياسية والاجتماعية والخوض فيما يخوض الناس فيه من أمور اجتماعية كالصداقة والاصدقاء ، وهو يلتقي مع ما قاله احد الناسخين على غلاف احدى مخطوطاته (٥٤) من انه « كان حسن الخلق والخلق جداً ، كان يستعبد الناس حسن محاورته لهم » . غير انه لم يذكر أحدًا من العلماء على انه تتلمذ عليه أو اخذ عنه ، وهذا من أعجب الأمور ، فتعنى علينا أسماء اساتذته وتلاميذه ، فيما وصلت اليه ايدينا ، حتى الآن ، من آثاره .

(٥٣) مقدمة رسالة في مخالطة الناس - مخطوط رقم ٣٦٥٤ / ٣ ، بمكتبة اسعد

افندي ، بالسليمانية باستانبول .

(٥٤) مخطوط الذريعة الى مكارم الشريعة ، رقم ٧٦٨ ، بمكتبة ابراهيم باشا ،

بالسليمانية .

مسحة دينية :

أما المسحة الدينية التي نتخيل أنها تصبغ أفعاله وعلاقاته الاجتماعية فقد نلمحها فيما سنرى من دعوته المتكررة لتسخير الدنيا في سبيل الآخرة ؛ ومن كثير من الأدعية ينثرها في تصانيفه في البدايات والخواتيم وفي الأثناء . من ذلك الدعاء الذي قد أجده فيه مثلاً لسائر ادعيته :

« اللهم زهدنا في الدنيا ووسّعها علينا ولا تزوها عنها فترغبنا فيها ... اللهم اغنني بالامتقار اليك ولا تفقرني بالاستغناء عنك ، اسالك خصب الرحل وصلاح الأهل والمعاونة على الدنيا بقناعة » (٥٥) .

أزمة في حياته :

وقد عثر الباحث على خبر خاص بأزمة عاناها الراجب ، وعلى الرغم من أنها لا تحل لنا شيئاً من التساؤلات التي نحن بحاجة الى اجاباتها ، حتى الآن ، فاننا نعرضها .

انه يقول في احدى مخطوطاته (٥٦) « فلم تزل تلك الدواعي (دواعي النظر في الآيات المتشابهة في القرآن) تزيد وتنبى منذ الصبا وثوبه القشيب الى أن عوضت منه ربطة المشيب » وهذه عبارات قد تفيد ، بعد قليل ، في التعرف على عمره ، طولاً وقصراً ، ثم يقول « فاتفقت خلوة سطوت على وحشتها بالقرآن ، ولولا أنسه لم يكن لي بها يدان ... وكانت هذه الخلوة خلوة عين لا خلوة قلب واضطرار لا عن اختيار بل لقهر وغلب في حالة توزع الرأي فيها مذاهب واقتسم اللهم لها مطالب » (٥٦) .

(٥٥) مخطوطة جميع البلاغة ، ورقة ١٢٨ .

(٥٦) « درة التأويل في متشابه التنزيل » ، مخطوط للراجب ، رقم ٨٦٠ ، مكتبة اسعد أفندي (السليمانية) استانبول .

اية ازمة ؟

إنّ هذه الأزمة قاهرة ، كما يبدو من قوله .. « لم يكن لي بها يدان » ومن قوله .. « توزع الراي فيها مذاهب » وهو صاحب الراي السديد الذي يسعف به المتخاصمين ، كما مرّ بنا في مقدمة مخطوطته « في ادب مخالطة الناس » . فما عسى هذه الأزمة أن تكون ؟ وما طبيعتها ؟ أهى فكرية تتصل بالتردد بين علماء الكلام وبين آراء أهل السنة والجماعة ، كلاً فإنّ الراغب يتخذ في هذه الأمور خطاً واضحاً لا تردّد فيه ، وهو الوقوف الى جانب أهل السنة والجماعة (٥٧) ، ولو انه يرى صلاح الأمة في الجمع بين الشرع والعقل (٥٨) . أم أن ازمته اجتماعية ذات اتصال بمصدر كسب الرزق وانقطاعه بسبب موت وزير أو خلافة ؟ أم انها ذات طابع سياسي تتصل بقهر وزير أو وال أو خلافهما بناء على مخالفة في الآراء الفكرية وفي مواقف الفرق الاسلامية ؟ إنّ في كلمته ما يلح الى هذا ويلح الى ذاك . فهي « خلوة عين لا خلوة قلب » فلئن أغمضت عينه فإنّ قلبه لم ينقل ، إنّه ظلّ على ما هو عليه ، عامراً بما كان عامراً به من فكر ويقين . ثم إنّ فيها قهراً ، لا محالة ، ليس يقول « لا عن اختيار بل لقهر وغلب » . يبدو أن الرجل قد غلب على امره فخلا الى نفسه ولم يعصمه من الشطط في هذه الخلوة إلاّ قراءة القرآن ، وفيها توزع رايه مذاهب بين القبول والرفض . بين الانصياع والثورة . ثم ماذا بعد ؟ إنّنا لا نستطيع أن نزيد شيئاً ، فليس بين ايدينا من اخباره ما يساعدنا على الزيادة ، حتى الآن ، وان كنا لم نزل نسعى في الظفر بالمزيد من اخباره .

(٥٧) مخطوط « رسالة في الاعتقاد » للراغب ، رقم ٣٨٢ ، بالسليمانية ، (سميد على

باشا) ، (استانبول) ، الورقة ٢ .

(٥٨) تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين ، طبع حلب ، ص ٦٣ .

سن الشيخوخة :

وفيمسا يتصل بطول ما عاش من عمر فإن النصوص القليلة من إخباره ، في آثاره ، قد تدلنا على أنه قد بلغ مرحلة الشيب والشيخوخة .

إنه يقول في أحد هذه النصوص « فلم تزل تلك الدواعي — دواعي النظر في الآيات المتشابهة في القرآن — تزيد وتنبى منذ الصبا وثوبه القشيب الى أن عوضت منه ربطة المشيب » (٥٩) وربة المشيب يعني بهما ثوب السن المتقدم في الكبر حينما يتغطى الرأس بالغطاء الأبيض .

وفي ختام كتاب « الذريعة » (٦٠) يقول « فسَهِّلْ يا رب المجاز وبيِّرْ لى بالجواز ، فقد حان حصادي ولم يصلح فسادى » ، وواضح ما يريده من ان يحين الحصاد في العمر دليلا على التقدم في السن .

فاذا ما عرفنا أن كتاب الذريعة هذا لم يكن الأخير من كتبه في حياته ادرکنا أنه قد أدرك ، على الأرجح ، مرحلة الشيخوخة لا الشيب فحسب . ذلك أنه في مقدمة مفردات الفاظ القرآن (٦١) يقول « كنت قد ذكرت في الرسالة المنبهة على فوائد القرآن ... واشترت في كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة ... وقد استخرت الله في املاء كتاب مستوفى فيه مفردات الفاظ القرآن ... وأتبع هذا الكتاب ، ويعنى المفردات ، بكتاب ينبىء عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد وما بينها من الفروق الغامضة ... » .

(٥٩) « درة التأويل في متشابه التنزيل » ، مخطوط للراغب ، رقم ٨٦٠ ، مكتبة أسعد افندي ، السليمانية ، استانبول .

(٦٠) طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٦١ ، القاهرة .

(٦١) طبعة المطبعة البينية بالقاهرة ، ١٣٢٤ هـ .

وفي مقدمة كتاب الذريعة (٦٠) يقول « كنت قد أشرت فيما أملتُه من كتاب تحقيق البيان في تأويل القرآن الى الفرق بين أحكام الشريعة ومكارمها . . . وقد استخرتُ الله تعالى الآن وعملت في ذلك كتاباً يكون ذريعة الى مكارم الشريعة » .

ترتيب آثاره :

ومن هاتين المقدمتين يبدو أنَّه قد صنف أولاً « الرسالة المنبهة على فوائد القرآن ثم تحقيق البيان في تأويل القرآن ، ثم كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة ثم كتاب المفردات في الفاظ القرآن ثم درة التأويل في متشابه التنزيل .

وهو يذكر بعض هذه المصنفات في مقدماته للبعض الآخر ، كما رأينا ، من النصوص السابقة ، بيد أنه لا يذكر واحدة من هذه المصنفات الفكرية الدينية والأخلاقية في أي من مصنفيه الأدبيين — محاضرات الأدباء ومجمع البلاغة ، كما أنه لا يذكرها في هذين المصنفين . فهل كانت المصنفات الأدبية في أوائل عمره الأدبي وكانت مصنفاته الأخرى في الفكر والدين والأخلاق والسلوك بعد أن تقدمت به السن ؟ انه افتراض قد يوصل اليه الاجتهاد والاستنتاج ، في غياب النصوص الصريحة الدالة .

كسف من المرأة المحطمة :

لقد كان الرجل ، اذن ، قليل التحدث عن نفسه وعن خصوصياته ، فلم يذكر لنا اسم استاذ اخذ عنه أو فقيه أو اخباري أو لفوي جلس اليه ، ولقد ترددت في آثاره عبارة « أملت » لكنه لم يصف عليها ليفيد باسم المملى عليه ، ولو مرة واحدة ، كما أنه لم يحدثنا عن مُترباه وعن طفولته وعن نشأته ، لم يذكر لصوقه بأي من

أصفهان التي يحمل اسمها ولا من بغداد التي من المحتّم أن يكون قد
 السّم بها أو عاش فيها . ففأية ما استطعنا أن نجعله من كسّف هذه المرآة
 المحطمة ، إلى جانب هذا التواضع في الحديث عن النفس إلى درجة
 الندرة ، انه كان يشارك في ندوات القوم ومجالسهم العلمية برأي فيه
 التضلع في اللغة والتمكّن من الثقافة الدينية ، بل أنّ الدين كان لديه
 مسلكاً وعقيدة وعبادة ، وأنّه قد التّبّ به أزيمة ، لم ندر ما أبعادها وما
 دواعيها ، حملته على الانعزال عن الناس برهة من الزمان ، لم ندر
 ما طولها ، وانه قد اشتغل رأسه شيئا ، وهو يضيف بعض أعماله .
 اما أكثر من ذلك فلم نقف منه على أثر .

المزيد من البحث :

ومع هذا كله فان الباحث لا يستسلم للباس مثل الطبيب الذي
 لا يسلم للموت . فلا بد من تقليب ما اثر عنه من الغلاف إلى الغلاف .
 لعنا نظفر بما يقرّينا من صورته أو عصره .

فعلى الورقة الأولى من مخطوطة « الذريعة إلى مكارم الشريعة » (٦٢)
 وجدت ترجمة للراغب نسخها مجهول عن ترجمة البيهقي التي عرضنا
 لها في الاشارتين إلى تاريخ وفاته ، فهو يذكرها في نهاية الاشارة
 بقوله « من تذكرة الحكماء » ولعله يريد من « تاريخ حكماء الاسلام » ثم
 يضيف : « وكان حسن الخلق والخلق جداً ، وكان يستعبد الناس
 حسن محاورته بهم » وهو حديث عام لا يحصل شيئاً محدداً ، ويختص
 اشارته بقوله « مات بأصبهان وهو ابن ست وستين سنة ، ودفن
 بها ، رحمه الله » . وهي عبارة ناعمة لو ارتبطت بذكر البداية الزمنية
 أو النهاية التي بنى بتاريخ الوفاة ، أو تقرّينا من عصر صاحبنا تقرّيباً ما .

وعلى الصفحة الأولى من المخطوطة نفسها عثرت على فقرة
كتبت بخط التعليق (الفارسي) الدقيق ، غير أنها لم تضاف الى ما
نعرف شيئا ذا بال ، فقد عدت ثلاثة من آثاره وذكرت أن العلماء
قد تلقوها بالقبول ، ثم أخذت تردد مزايا مدينة أصفهان التي هو
واحد من مشاهيرها .

وعلى الورقة الاولى من مخطوطة أخرى للراغب هي « حل
متشابهات القرآن » (٦٢) نجد حديثا لا يربطنا به الا انه مثبت على
مخطوطة منسوبة حقاً لصاحبنا الراغب . فقد ذكر هنا القارئ
المتسرع اسماً لم نعرفه من أسماء الراغب هو « أبو محمد بن الحسين
الاصفهاني » . ولم تعرض كتب التراجم لاصفهانى يحمل هذا الاسم ،
وفي هذا الحديث انه تصدر للوعظ والتدريس والتأليف ، وله مصنفات
جليلة (لم يذكرها) ومناظرات عجيبة . وفيه ايضا ان له رحلة للهند
وغيره (كذا) « ولما رجع الى نيسابور مات في الطريق سنة ست
واربعمئة ، فنقل لنيسابور ودفن بها » .

ان هذه الآثار لا تستمد القوة من نفسها بل من قربها من اخبار
أخرى موثقة قد انتهت ، فليست ، وحدها ، مطمئنة ولا معروفة ، وليست
معلنة عن أصحابها ، ولا تحمل المعلومات الكافية عن الراغب . انها ،
اذن ، قد تفيد في الترجيح على الرغم مما يكتنفها من الشك . ونحن
نستمع بإرهاق لأشد الأصوات خفوتاً حينما تميز علينا الأصوات العالية
الصريحة ، وقد قال الشاعر :

من جزّ كلبا فمحتاج إلى وبر ولا قطّ الحبّ محتاج الى البعر

ما بين السطور :

ونبحث ، من بعد آثاره ، فيما بين سطور آثاره ، نستنطقها ولا بد أنها ناطقة ، فلعلها لا تكون صماً خوالد ما يبين كلامها « كأطلال لبيد » .

فمن هم الأعلام الذين ذكرهم الراغب في هذه الآثار ؟
ومن هم الأدباء الذين أجرى أشعارهم ومنثوراتهم في تضاعيفها ؟
ومن هم رجال السياسة الذين عرض لذكرهم في حياته ؟ هل
ذكر بعضهم باحتشام وتهيب ؟ وذكر آخرين بغير تلك المشاعر ؟

ان آخر وفاة يذكرها الراغب في آثاره لا ترقى ، في حدود ما علمت من مطبوعاته ومخطوطاته (٦٤) ، الى أكثر من عام ٤٢١ هـ ، وبصورة ادق كان هذا العام هو تاريخ وفاة أكثر الرجال تأخراً في حياته ، وهذا العام هو عام وفاة أبي علي الخازن أحمد بن يعقوب بن مسكويه (٦٥) . بل ان أكثر من ذكرهم من اعلام السياسة والادب هم من قضى في اخريات القرن الرابع . لقد ذكر أبا الفضل بن العميد وزير بني أمية في مخطوطة مجمع البلاغة خمس مرات وفي محاضرات الأدباء مثل ذلك تقريباً ، وعدوا له فيهما أقوالاً ، وذكر الصاحب بن عباد الوزير الثاني لبني بويه في المخطوطة المذكورة سبع عشرة مرة وفي محاضرات الادباء أكثر من ذلك ، وأورد بعض أقواله وأشعاره وضربها أمثلة على موضوعات كان يطرقها . ومن المعروف أن الاول قد توفي عام ٣٦٠ هـ (٦٦)

(٦٤) لقد اطلعت ، حتى الان على آثاره المطبوعة والمخطوطة التي ذكرها بروكلمان ما عدا مخطوطتي كتاب الاخلاق ، (برلين ٥٢٩٢) ، وادب الشطرنج ، (تازان ISL. XVII 4) ، فانا ماض في البحث عنهما بمشيئة الله .

(٦٥) الاعلام ١ / ٢٠٤ ، ط ٢ .

(٦٦) وفيات الاعيان ٥ / ١٠٩ ، وتجارب الامم ، ابن مسكويه ٣٠١ .

وأما الآخر فعام ٣٨٥ هـ (١٧) .

ولقد ذكر معها حكام بني بويه كعضد الدولة (٣٧٢ هـ) (١٨) وعز الدولة (٣٦٧ هـ) (١٩) . غير أنه لا يذكر ، ولو خبراً واحداً عن الذين أزال لهم من بني بويه فخلفوه على الحكم وأعني السلاجقة الأتراك الذين يبدأ تاريخ حكمهم عام ٤٤٧ هـ . فهل تراه يعيش الى عام ٥٠٢ هـ ، الذي ذكر أنه توفي فيه ، نيفاً وخمسين سنة في ظل حكام لا يذكر عنهم شيئاً ؟

ثم ما بال أبي القاسم الراغب يعجب بأبي الطيب المتنبي ، أيّما إعجاب ، فيذكره حيناً باسمه أحمد بن الحسين ، وحيناً بكنيته أبي الطيب ، وحيناً بلقبه المتنبي ، ويستشهد بقدر كبير من شعره لكنه لا يتمثل ولو بكلمة واحدة من آثار أبي العلاء المعري وقد تعددت في شعر ونثر وموضوعات وفكر وأدب ؟ ألا يعني هذا شيئاً لنا ؟ وقد توفي أبو الطيب عام ٣٥٤ (٧٠) وقضى أبو العلاء عام ٤٤٩ هـ ؟ (٧١) وهل يعقل أن موقف الراغب من أدب أبي العلاء وفكره قد منعه من ذلك ؟ انني لم أقف على شيء يؤيد ذلك فيما اطلعت عليه من آثاره .

ثم انّ في آثاره ما يشهد بأنّه عاصر بعض مراحل الصراع الفكري بين علماء الكلام وسائر الفرق الاسلامية كالأشعرية والشيعة (٧٢) ،

(٦٧) ذيل تجارب الامم ، أبو شجاع ظهير الدين الروذرواري ، ص ٢٦١ ، أحداث

عام ، ٣٨٥ ، الاعلام للزركلي ٣ / ٣ ، ط ٣ .

(٦٨) ذيل تجارب الامم ، الروذرواري ، ص ٢٩ ، أحداث عام ، ٣٧٢ .

(٦٩) المصدر السابق ، ص ٢٨١ ، أحداث عام ، ٣٦٧ .

(٧٠) وفيات الاميان ١ / ٣٦ .

(٧١) معجم الادباء ١ / ١٨١ .

(٧٢) أحمد أمين ، ظهير الاسلام ، ط ٤ ، ٢ / ٥١ .

وقد استمرت هذه الخصومات في القرن الرابع وكمدت في القرن الخامس (٧٢) .

هل نحصل من هذا كله شيئا ؟

نحسب اننا بازاء رجل كان يعيش في عصر الصحاب بن عباد المتوفى عام ٣٨٥ هـ .

ابو العباس الضبي ، خليفة الصحاب بن عباد :

الا تقربنا آثاره ، بعد ذلك ، الى نفسه اكثر من ذلك ؟ لعلنا نظفر بشيء من ذلك اذا مضينا في البحث والتنقيب في هذه الآثار .

إنّـه حينما يورد بيت الشعر التالي في مخطوطة « مجمع البلاغة » (٧٤) التي عني الباحث بتحقيقها :

لا تحسبن دموعي البيض غير دمي وانما نفسي الحامي يصعده
ينسبه في نسخة معهد احياء المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية
التي رمز لها بحرف (ع) « للأستاذ الرئيس احمد بن ابراهيم » ،
بينما ينسبه في نسخة مكتبة جامع السلطان احمد الثالث باستانبول
الرموز لها بحرف (س) للصحاب بن عباد .

وهنا نلتقط اسم « الاستاذ الرئيس احمد بن ابراهيم » لنبحث عنه فلعلّه يكون راس خيسط يوصل الى يقين . إنّ الراغب لم يذكره في المخطوطة المذكورة مرة اخرى ، بل إنّـه لم يرد في اعمال الراغب إلا في موقف آخر فقط ، هو في محاضرات الأدباء (٧٥) .

(٧٢) المرجع السابق والصفحة .

(٧٤) ص ٤٩٠ .

(٧٥) الجزء الرابع ، الصفحة ٦٠٩ ، دار مكتبة الحياة - بيروت .

ونبحث عن صاحب الاسم لنجد أن ياقوت يخبرنا أنه « أبو العباس الملقب بالكافي الأوحّد ، الوزير بعد صاحب أبي القاسم ابن عباد ، لفخر الدولة أبي الحسن علي بن ركن الدولة بن بويه ، مات في صفر ٣٩٩ هـ » (٧٦) ونجد أنّ « ذيل تجارب الامم » ، الذي اتمّ التأريخ بعد كتاب ابن مسكويه المشهور (تجارب الأمم) يخبرنا أنّه « لدى وفاة فخر الدولة وتولي ابنه مجد الدولة الحكم ، والوزيران يومئذ هما أبو العباس الضبي الملقب بالكافي الأوحّد وأبو علي بن حمولة الملقب بأوحد الكفاة » (٧٧) . وقد ذكره أيضا صاحب في بعض رسائله ذكر من يرضى عنه ومن يعمّده لجلال الأمور في مستقبل الايام (٧٨) ، كما ذكره صاحب « وفيات الاعيان » (٧٩) والثعالبي في « اليتيمة » (٨٠) والذهبي في تاريخ الاسلام (٨١) وعباس المكي في « نزهة الجليس » (٨٢) . أما المامروخي في كتابه « محاسن اصفهان » فانه يورد نصّا صريحا يربط ما بين الصاحب وخليفته الضبي هذا ثم يذكره باسمه ولقبه بشكل صريح ، يقول « وقّع الصاحب كافي الكفاة الى الاستاذ الرئيس ابي العباس الضبي توقيعاً بقضاء حاجته » (٨٣) .

(٧٦) معجم الادباء ، دار المشرق ، بيروت ١٠٥/٢ .

(٧٧) ظهير الدين الروذاهاري ، ذيل تجارب الامم ، شركة التقدم الصناعية ، ١٩١٦ ، احداث السنوات ، ٣٦٩ - ٣٨٩ .

(٧٨) رسائل الصاحب ابن عباد ، تصحيح عبد الوهاب عزام ، وشوقي ضيف ، دار الفكر العربي ، ١٣٦٦ ، ص ٩٤ .

(٧٩) ٩١ / ٢ .

(٨٠) ١٢٤ / ١٠ .

(٨١) احداث عام ، ٣٨٨ .

(٨٢) ٢ / ٢٨٥ ، وعمّده من الذين ترددوا على بلاط الصاحب في اصفهان والري وأرجان .

(٨٣) محاسن اصفهان ، المامروخي ، طبع ايران ، ١٣٥٢ هـ ، ص ٩٨ .

وقد يقرب هذا الوزير من صاحبنا الراغب أنّه ذكر أنّه رفع
إليه ثلاثة من كتبه ورسائله ، لم يذكره باسمه ولكن بلقبه « الأستاذ » :

ففي مقدمة كتاب تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين يقول
الراغب: « وقد عملت ذلك للأستاذ الكريم أيّده الله » (٨٤) .

وفي إحدى رسائله المخطوطة (٨٥) يقول: « ولما رأيت الأستاذ
حرسه الله ... » وفي أخرى يقول (٨٦): « قصدي في هذه الرسالة
أن أبين للأستاذ أدام الله تأييده ... » وفي آخرها يقول: « .. وقى
الله الأستاذ وأطال بقاه » .

وهو في كتابين منشورين يكتفي عنه بـ « سيدنا » وهو مَنْ
نرجح أنّه هو أيضا ، ففي مقدمة كتاب المحاضرات (٨٧) يقول: « وبعد
فإنّ سيدنا ، عمر الله بمكانه مرابع الكرم ... أحبّ أن أختار
له ... »

وفي مقدمة المخطوطة المحققة « مجمع البلاغة » يقول: « ...
ولما رأيته حرس الله جمال الفضل بك سائلا الى الألفاظ المونقة ...
تتبع نواذر الأشعار » (٨٨) .

(٨٤) طبعة حلب ، ص ٢ .

(٨٥) هي رسالة في ان « فضيلة الانسان بالعلوم » ، مخطوط ٣٦٥٤ / ١ ، مكتبة
أسعد أفندي ، بالسليمانية .

(٨٦) هي رسالة في « مراتب العلوم » ، مخطوطة ٣٦٥٤ / ٤ ، مكتبة أسعد أفندي ،
بالسليمانية .

(٨٧) دار مكتبة الحياة ببيروت .

(٨٨) المخطوطة — مجمع البلاغة — المقدمة .

ولقد عرف هذا اللقب لغير هذا الوزير أيضا ، فقد كان يلقب به أبو الفضل ابن العميد ، كبير وزراء بني بويه . غير أن الراغب لم ينسب هذا اللقب لابن العميد حينما يذكره ، وكثيراً ما ذكره ، في « محاضرات الادباء » وفي « مجمع البلاغة » ، بل انسه قد نسبته لهذا الوزير ، أحمد بن إبراهيم ، أبو العباس الضبي فقط ، كما رأينا .

كشف عصر الراغب :

من هنا يرجح الباحث أن أبا القاسم الراغب الاصفهاني قد عاصر أولا صاحب بن عباد ، وزير بني بويه ، المتوفى عام ٣٨٥ (وكان قد عاصر قبله ابن العميد) ثم عاصر بعد صاحب الوزير الذي جاء خليفة له وهو الوزير أبو العباس الضبي ، أحمد بن إبراهيم ، المتوفى عام ٣٩٩ . كما يرجح الباحث أن الراغب كان يقسم بعض مصنفاته هدايا لهذا الوزير الذي عرف بالاستاذ الرئيس .

عودة لمناقشة تاريخ وفاة الراغب :

واذ قد وصل بنا البحث الى أن الراغب الاصفهاني قد كان يعايش صاحب بن عباد وخليفته أبا العباس الضبي فقد أصبح من الضروري البحث عن السراي المرجح في تاريخ وفاته الذي ذكرنا ، في بداية البحث ، أن المؤرخين ، على قلتهم ، قد انتهوا فيه الى خلط كبير .

الفئة الاولى :

وقد كان هؤلاء المؤرخون متميزين في فئتين ، في هذا الرأي . أما الاولى فتجعل وفاة الراغب في بداية القرن السادس ٥٠٢ هـ أو في النصف الثاني منه ٥٦٥ هـ . وأما الثانية فتجعله في بداية القرن الخامس .

ولدى مناقشة اقوال الفئة الاولى نجد انها تمثل اقوال مؤرخي الشيعة واقوال بروكلمان ومن شايعه .

فلقد ذكر صاحب « الذريعة الى تصانيف الشيعة » اكثر من مرة (٨٩) أن الراغب قد توفي عام ٥٦٥ هـ ، ونقل ذلك عن كتاب « أخبار البشر » ، وهو من الكتب المتقدمة في طبقاتهم . ومن الغريب انه يناقض نفسه فيسوق ارقاماً أخرى ، فهو يذكر مرة أن وفاة الراغب كانت في ٥٠٢ هـ (٩٠) ومرة في ٣٢٢ (٩١) . وكفى بهذا التناقض دليلاً على التهاوت في هذه التواريخ . ومن المؤسف أن نقل عنه في ذكر وفاة الراغب (في ٥٦٥ هـ) بعض مؤرخي الشيعة مثل عباس القمي في « الكنى والالقب » (٩٢) ، والخوانساري في « روضات الجنات » (٩٣) .

غير أن باحثاً منهم قد ناقش صحة هذا التاريخ ليثبت أن الوفاة قد تمت عام ٥٠٢ . قال : « وفي الروضات (ص ٢٥٦) عن تاريخ أخبار البشر انه توفي عام ٥٦٥ وهو غلط ، فانه قال بعد ذلك إن وفاته قبل وفاة جابر الله الزمخشري ، مع أن الزمخشري توفي عام ٥٣٨ ، ويأتني عن كشف الظنون أن الغزالي كان يستصحب الذريعة (الى مكارم الشريعة) للمترجم (يعني للراغب) والغزالي توفي ٥٠٥ هـ » (٩٤) .

(٨٩) المجلد ١٠ ، ص ٢٨ ، والمجلد ١ ، ص ٣٧٤ .

(٩٠) ١٢٨ / ٢٠ .

(٩١) ٩٥ / ٨ .

(٩٢) ٢٤٠ / ٢ ، مطبعة العرفان - صيدا .

(٩٣) ١٩٧ / ٢ ، طهران .

(٩٤) محسن الامين العاملي ، اعيان الشيعة ٢٧ / ٢٢٠ ، مطبعة الانتصاف .

ولو ان هذا الباحث واصل تساؤله عن سائر تواريخ وفاء الراغب ، اذن لادرك ان المتوفى عام ٥٠٥ هـ قد يصعب ، وان لم يكن يستحيل ، ان يعنى بمصنف لمعاصر له توفي قبله بثلاث سنوات فقط ، فكيف اذا كان هذا المعنى هو حجة الاسلام ابا حامد الفزالي ؟ ! .

ولكن من اين جاءنا رقم ٥٠٢ هـ هذا ؟ لم اجد مؤرخاً من الأقدمين ذكره او ذكر ما يوحي به . واغلب الظن انه جاء من المستشرق الالماني كارل بروكلمان ، في تاريخه للأدب العربي (٩٥) . فجميع الذين قالوا به في العصر الحديث (٩٦) ، ولا استثنى مؤرخي الشيعة الذين ذكروا قبل قليل ، فهم عيال عليه ، فقد نقلوا عنه نقلاً مباشراً « أمينا » . ومع ذلك فلم يسيروا الى مرجعهم ، الأهمسة الخزانة التيمورية الخديوية ، فقد ذكرت « المتوفى ٥٠٣ » ، كما حققه بعض المستشرقين « (٩٧) » .

الفئة الثانية :

هذه ، اذن ، هي اقوال الفئة الاولى في التاريخ لوفاء الراغب الاصفهاني ، وتكاد تتركز في عام ٥٠٢ ، وقليل منها الذي ذكر عام ٥٦٥ هـ .

اما الفئة الثانية ففي مقدمتها يذكر جلال الدين السيوطي (٩١١) الذي يفصل بينه وبين عصر الراغب قرابة خمسة قرون . فقد كان اول من ذكر ان الراغب « كان في اوائل المائة الخامسة » (٩٨) ، ولعله

(٩٥) المجلد الثالث : المبسط ، ص ٥٠٥ .

(٩٦) مثل دائرة المعارف الاسلامية ، والقاموس الاسلامي ، ومعجم المطبوعات العربية ، وجورجي زيدان ، والموسوعة العربية الموسعة ، وخير الدين الزركلي ، وعمر رضا كحالة .

(٩٧) ١٠٨ / ٣ .

(٩٨) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، الخانجي ، ط ١ ، ١٣٢٦ ، ص ٣٩٦ .

يريد بذلك أنه قد عاش الى ما بعد نهاية المائة الرابعة للهجرة . ولعله يفهم منه ، كذلك أنه لم يعيش من القرن الخامس أكثر من عقد منه أو عقدين على الأكثر ، حيث يدركها وهو شيخ طاعن في السن (٩٨) .

ولنذكر هذه الصيغة التي هي اقرب الى روح التحري العلمي الدقيق « اوائل المائة الخامسة » ولم يجزم بتاريخ محدد . ولا ننسى ايضا ، أن السيوطي قد أشار الى أن فخر الدين الرازي تد أظهر اعجابه بالراغب ، واعجاب الآخرين بكتبه .

ولقد تبع السيوطي ، في ذكر عصر الراغب ، حاجي خليفة في « كشف الظنون » ، ومع أنه سكت عن ذلك ، وهو يذكر بعض مصنفات الراغب (٩٩) ، فإنه ذكر في بعض آخر أنه « في رأس المائة الخامسة » (١٠٠) ونص على من نقل عنه في بعض ثالث « وسماه السيوطي في طبقات النحاة المفضل بن محمد وقال : وكان في اوائل المائة الخامسة » (١٠١) .

إن الراغب يدين ، فيما يبدو ، لجلال الدين السيوطي بقدر ليس بالقليل من الذكر والتأصيل . وقد مر بنا أن ظهير الدين البيهقي ، أول من ذكره ، لم يتعرض لذكر وفاته .

ولبعض الباحثين المحدثين شيء من مثل هذا الفضل في تحقيق تاريخ وفاة الراغب .

(٩٨) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، الخانجي ، ط ١ ، ١٣٢٦ ، ص ٣٩٦ .

(٩٩) المجلد الثاني ، ص ٢٨٩ .

(١٠٠) ١ / ٢٠٦ ، ١ / ٢١٧ .

(١٠١) ٢ / ٤٨٨ .

يذكر الاستاذ محمد كرد علي ، في تحقيقه لكتاب « تاريخ حكماء الاسلام » (١٠٢) للبيهقي السالف الذكر ، يذكر في أحد هوامشه أن الراغب قد توفي عام ٤٠٢ في أصح الروايات أي أوائل المائة الخامسة . ويقدر ما في العبارة من تحقيق قد لا يعدو الصواب كانت تنقصها الإشارة الى المرجع ، وان كان النص يشي بأنه مستقى من السيوطي .

ويذكر الاستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ، في تحقيقه لكتاب « البرهان في علوم القرآن » للامام بدر الدين الزركشي في بعض هوامشه « انه ، أي الراغب ، توفي عام ٣٩٦ هـ » (كذا) . ويضيف « وانظر بغية الوعاة ٣٨٦ » (١٠٢) ويريد برقم ٣٨٦ رقم الصفحة من الطبعة التي استقى منها « بغية الوعاة » . ولا أدري من أين استقى هذا المحقق الفاضل هذا التاريخ ٣٩٦ ؟ وصاحب « بغية الوعاة » الذي يحيلنا عليه هو القائل بأن الراغب قد عاش الى أوائل المائة الخامسة ؟ !! .

ومع ذلك فان قرب هذا التاريخ من قول السيوطي يذكر بفضل هذا الباحث ، كما يذكر بفضل سابقه .

ترجيح رأي الفئة الثانية ، « في أوائل المائة الخامسة » :

ذلك أن الباحث يرى أن أقوال هذه الفئة هي المرجحة في قربها من الصواب ، من خلال ما رأينا من تهافت آراء الفئة الاولى من الداخل ، أولاً ، ومن خلال التقاء آراء الفئة الثانية ، التي هي أكثر تحرياً للدقة والموضوعية ، مع ما توصلنا اليه في كشف عصر صاحب ، قبل

(١٠٢) مطبعة النرمي ، دمشق ، ١٩٤٦ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

(١٠٣) مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ط ١ ، ١٩٥٧ ، ١ / ١٢٦ .

قليل ، من معاصرتة للصاحب بن عباد وخليفة صاحب الوزير ابن
العباس الضبي المتوفى عام ٣٩٩ هـ .

الخطأ في تاريخ وفاة الراغب — قرن من الزمان !!!

ومن هذا التحقيق يتبين لنا حجم الخطأ الكبير الذي يقع فيه
كل من قال ويقول بأن أبا القاسم الحسين بن مفضل ، المعروف
بالراغب الإصفهاني قد توفي عام ٥٠٢ هجرية . فبدلاً من أن يعدّ في
كُتّاب القرن الخامس الهجري (١٠٤) ومفكره فانه ينبغي أن يكون من
أشهر من يحسب من أدباء القرن الرابع ومفكره ، ذلك العصر الذي
شهد الحضارة العربية الإسلامية في ازدهار عصورها .

وبتحقيق هذا التاريخ نكون قد التقينا ، بعد التحري الدقيق ،
مع ما خطّه القارئ المجهول ، على إحدى مخطوطات الراغب في
استانبول ، من أن الراغب قد توفي عام ٤٠٦ هجرية . وقلنا عن
هذه الإشارة ، لدى عرضها ، أنها لا تحمل مقومات الثقة في المراجع
ولكننا توصلنا ، عن طريق آخر ، أنها صحيحة وإن لم تاتها الصحة
من نفسها .

عُمُر الراغب :

أما عن العمر الذي عاشه الراغب فأتينا نقول إذا صح ما
استنتجنا ، ونرجو أن يكون كذلك ، من أنه قد توفي في العقد الأول من
المائة الخامسة للهجرة ، وصح ما استنتجنا أيضاً من ترتيب مصنفاته
في حياته ومن أنه قد بلغ من العمر عتياً ، وصح ما خطّه قلم كاتب

(١٠٤) كما عدّه الدكتور عمر مروة في كتابه تاريخ الأدب العربي — دار العلم
للملايين ، الجزء الثالث ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٢١٤ .

مجهول آخر على مخطوطة أخرى للراغب في استانبول من أنه قد توفي عن سنت وستين سنة ، وهذا ما لم يقم عليه دليل بعد ، اذا صح هذا كله فان الراغب لا يبعد ان يكون من مواليد العقد الخامس او الرابع من القرن الرابع الهجري . والله اعلم ، مع هذا كله ، بتاريخ ولادة الراغب وتاريخ وفاته .

انيب ومفكر ولغوي ومفسر ولكنه مظلوم :

وربّ سؤال ينهض في وجه هذا البحث الذي طال ليحاول تحقيق تاريخ وفاة : فيمّ كل هذا العناء ؟

تتكشف الاجابة عن هذا السؤال اذا ما تذكرنا صمت كتب التراجم والطبقات ، الى حد ملموس ، عن التعرض لصاحب مصنفات روي ان حجة الاسلام ، الغزالي ، كان يعجب بها ويستحسنها لنفسها ، واذا ما تذكرنا ان اغلب اصحاب المعاجم اللغوية وتفسير القرآن الكريم التي عاش اصحابها بعد عصر الراغب قد افادوا جميعا ، تقريبا من كتابه الفذ « معجم مفردات القرآن » ، واذا ما اضفنا ، الى ذلك ، ان الراغب قد ظلم في مصنفات معاصريه وفي الابحاث الجلية التي قامت حول رجال التراث ومصنفاتهم في العصر الحديث .

فقد ذكر الراغب ابن مسكويه ٤٢١ هـ (١٠٥) ولكن ابن مسكويه ، في اغلب الروايات لم يجره على لسانه . ولم يرد في مصنفات ابي حيان التوحيدي ٤٠٠ هـ (١٠٦) ، في حدود ما اعلم ، وقد حفلت كتب التوحيد بكثير مما شارك فيه الراغب من افكار دينية وشرعية

(١٠٥) مجمع البلاغة ، ورقة ٣٤٤ .

(١٠٦) الامام ٥ / ١٤٤ ، وبغية الوعاة ، ٣٤٨ .

وأخلاق وسلوك . ولم يذكره معاصره أبو منصور الثعالبي وقد شغل بالتاريخ لأدب القرن الرابع الهجري كله ، وقد توفي ، على الأرجح بعد الراغب ٤٢٩ أو ٤٣٠ هـ (١٠٧) . كما أن الباحثين في حياة أبي الحسن البصري الماوردي وفي « أحكامه السلطانية » وفي أحاديثه في الاخلاق وفي « أدب الدنيا والدين » لم يذكروا أن هذا القاضي المشهور بعدله قد مرّ على خاطره اسم صاحب الذريعة أو تفصيل النشأتين وهما في الاخلاق والسلوك ما هما .

كما أن ما قام حول أدب العصر العباسي وفكره وتراثه في العصر الحديث (١٠٨) ، لم يكذب يتعرض للراغب ، في قليل أو كثير .

سر التجاهل :

أن هذا كله يحملنا على التساؤل عن أسباب نُدرة الترجمة ، في القديم وفي الحديث ، لفكر الراغب وأدبه وأثره . وهو تساؤل يبرز أمام كل باحث يتعرض للراغب ويشهد المفارقة الشاسعة بين فضل الرجل وبين تجاهل الناس إياه . فقد تعرض له الباحث الوحيد ، فيما أعلم ، في العصر الحديث ، فتساءل ، في درس الراغب ، عن هذه الأسباب .

(١٠٧) مقدمة كتابه « التثليل والمحاضرة » تحقيق عبد الفتاح الحلو ، ١٩٦١ ، طبعة الحلبي .

(١٠٨) بنبل مصنفات ظهر الإسلام للاستاذ أحمد أمين ، والحضارة الإسلامية في القرن الرابع ، لادم مبيتز ، ولا أستثنى النثر الفني في القرن الرابع ، للدكتور زكي مبارك ، فإشارة يتيمة للراغب لم تكن كافية على الإطلاق ، ويجري مجرى هذه المصنفات الأبحاث الجامعية المتفرقة على طلبة الجامعات .

فقد وجد الاستاذ محمد كرد علي ان عدم اتصال الراغب بقضاء او عمل للدولة او مناداة أمير او وزير هو سبب عدم ذكره ، في طول التاريخ الادبي وعرضه . ويضيف الى هذه الاسباب المحتملة سكنى الكاتب في مدينة غير مشهورة من مدن بلاد فارس ، غير اصفهان ، التي اليها ينسب ، وغير نيسابور ، التي قيل انه بها قد توفي وفيها دفن ، فقد أخرجنا رجالا لهم خطرهم في شتى الفنون .

ويحدثنا باحث آخر (١١٠) ان السبب هو تنقل الراغب بين بغداد واصفهان ، ولا احسب ان ادبياً في عصر الازدهار الفكري والادبي الذي عاشه الراغب ، قد صفق على نفسه الباب ، ولم ينتقل في أرجاء العراقين .

وربما كان ما اصاب الراغب من اهمال سببه فقدانه لعطف الفرق الاسلامية التي كانت احزاباً تقوم على اساس سياسي كالإمامة او عقائدي كصفات الله تعالى وافعاله . وقد فقد عطف هذه الفرق لانه لم يعلن ولاءه لاحداها في مواقفه وفي مصنفاته ، بل انه قد انتقد كلا من المعتزلة والمتشيعية والمشيبة والخوارج ولم يقبل منها إلا رأي اهل السنة والجماعة (١١١) .

تشيعه :

ولا استبعد ان يكون أحد أسباب تجاهله ، في القديم والحديث ، هواتهامه بالتشيع ولعل هذا الاتهام قد نفذ اليه من احتفاله البيِّن

(١١٠) هو الدكتور حسين محفوظ ، استاذ الدراسات الشرقية بكلية الاداب بجامعة بغداد ، في حديث شخصي مع الباحث أثناء زيارته لبغداد بتاريخ ١٠/١٠/١٩٧٥ .

(١١١) مخطوطة رسالة في الاعتقاد ، للراغب ، رقم ٣٨٢ ، مكتبة سعيد علي باشا ، السليمانية ، استانبول ، الورقة الثانية .

بأقوال الخليفة الرابع ، كرم الله وجهه ، فهو يكثر من التمثيل بأقواله وأفعاله ويردّد بين الحين والحين أخبار أهل عقرته ، وأكثر ما يكون هذا واضحاً في مصنفاته الادبية كمحاضرات الأدباء ومخطوطة « مجمع البلاغة » . ومن هنا تجد أن كتب تراجم الشيعة (١١٢) قد أفردت له صفحاتها بينما لم يترجم له السبكي في طبقات الشافعية مثلاً .

غير أن أحد مترجمي الشيعة يفتن لما فعل من خطأ ويقرر « أنه من الشافعية كما استفيد لنا من فقه محاضراته (١١٣) ، وهنا نراه يلتقي مع ما يقرره فخر الدين الرازي من « أبا القاسم الراغب من أئمة السنة » (١١٤) .

فكيف نوفق بين احتفال الرجل بأخبار علي بن أبي طالب وأفعاله وبين قول بعض العلماء من أنه سني ؟ أنه لبيدو للباحث أن الراغب لم يتجاوز حبه لعلي ، كرم الله وجهه ، ما يرضي به نداء الوجدان الذي تربى عليه ونشأ فيه ، ذلك لأنه في مواقف الفكر والعقيدة صريح صراحة لا تترك مجالاً للنقاش ، فيُخطئ سائر الفرق الإسلامية ويعلن ولاءه الصريح لأهل السنة والجماعة ، فهو يقول : « الفِرَق المتبدعة الذين هم كالأصول للفرق الاثنتين والسبعين (١١٥) سبعة : المشبهة ونفاة الصفات والقدرية والمرجئة والخوارج والمخلوقية

(١١٢) مثل الذريعة الى تصانيف الشيعة ٢٠ / ١٢٨ ، وإعيان الشيعة ٢٧ / ٢٢٠ ،

وسفينة البحار ، والكنى والألقاب ٢ / ٢٤٠ ، وروضات الجنات ٣ / ١٩٧ .

(١١٣) الخوانساري في روضات الجنات ، طبع ابران ٣ / ١٩٧ .

(١١٤) في ترجمة السيوطي للراغب ، بغية الوعاة ، ٣٩٦ .

(١١٥) يشير الى الحديث الشريف الذي أورده الشهرستاني دون تخريج (المال والنمل ،

٨ / ١) « ستفرق أمسي على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية فيها واحدة ... »

والمشيعة . فالمشبهة (١١٦) ضلّت في ذات الله ، ونفاة الصفات (١١٧) ضلّت في صفات الله والتقديرية (١١٨) في أفعاله والخوارج (١١٩) في الوعيد ، والمرجئة (١٢٠) في الايمان ، والمخلوقية (١٢١) في القرآن ، والمشيعة (١٢٢) في الامامة ... والفرق الناجية هم اهل السنة والجماعة الذين اقتدوا بالصحاب (١٢٣) .

وليس المقام مقام توسع في موقف الراغب من الفرق الاسلامية وقناعته برأي السنة والجماعة ، ولكنني اکتفي بهذا القدر منبهاً الى ضيغة المشيعة وما فيها من دلالة لغوية ومن فرق بينها وبين الشيعة ، والى ان لقب الامام الذي يحمله لا يطلق الا على علماء السنة . والى ان الكثير من الناس في مصر وفي غيرها من البلدان العربية

(١١٦) هم جماعة من الشيعة الغالبة قالوا ان معبودهم صورة ذات اعضاء وابعاض ، (الشهرستاني ، الملل والنحل ٢ / ٩) .

(١١٧) يريد المعتزلة لانهم نفوا ان يكون لله صفات ازلية قديمة (د . علي النشار ، التفكير الفلسفي في الاسلام ١ / ٤٢٠) .

(١١٨) يزيد بهم المعتزلة الذين قالوا ان افعال المباد ليست من الله .

(١١٩) لانهم قالوا ان مرتكب الكبيرة كافر مشرك (النشار ١ / ١٨٦) .

(١٢٠) لتولهم لا تضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة (الشهرستاني ، ١ / ١٨٦) .

(١٢١) يريد من قال بخلق القرآن منهم — من المعتزلة .

(١٢٢) وخلاصة رأي الشيعة في الامامة « ان الله لا يخلي الارض من حجة على المباد من نبي او وصي ظاهر مشهور او غائب مستور » و « ان النبي قد اوصى لملي ، واوصى علي لابنه الحسن ، واوصى الحسن لاختيه الحسين ، وهكذا النسي الامام الثاني عشر المنتظر » (الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، اصل للشيعة واصولها ، بغداد ، ط ٣ ، ١٩٤٤ ، ص ٨١) .

(١٢٣) مخطوطة رسالة في الاعتقاد ، للراغب ، رقم ٣٨٢ ، بمكتبة سعيد ملي باشا ، السليمانية ، استانبول .

والاسلامية ليعلمون بحب آل البيت دون أن يقولوا بقولهم في الامامة
وفي الوصاية .

حتى اذا ما عدنا لنرى اثر هذه التهمة على ابي القاسم الراغب
وجدنا انها كانت ذات اثر كبير في اغفال المترجمين لترجمته ، فقد
حُسِبَ على الشيعة وانكره مصنفو الطبقات والتراجم العامة لهذا
السبب ، وتبين انه ليس من الشيعة ، فضاع اثره بين هؤلاء وأولئك ،
وانتهى الى ما نرى من نكران وخمول ذكره .

وقد يرد في الذهن ، من اسباب خمول ذكره ، ما فيه من عفة
وترفع أو انعزال عن دائرة الضوء ، كما نقول في هذه الايام ، وعن
بلاطات الحكم . وإيّا ما كان السبب او كانت الأسباب فاننا نظل
بازاء كاتب مفكر وفقيه ومفسر ولغوي قد حاق به ظلم كبير في كتب
التراجم القديمة وفي ابحاث معاصريه ومعاصرينا ، ورجاؤنا أن يكون
هذا البحث محاولة أولى في ازاحة ركام النسيان والتجاهل عن اثره
وعن آثاره .